من الدراسات الأدبية

ابن الخلفة *

للأستاذ عبد اللطيف الشهابي

من وراء زوايا التاريخ المهملة ، ومن خلال صفحات المخطوطات القديمة ، ومن خلف خزانات صدور شيوخ الأدب : تلوح أنوار مشرقة ، وتطل صور زاهية ، وتتراءى بدوات مشرقة ، فتومض وميض الذكريات في خاطر الزمن ؛ حاملة نفحات شذية ، فاحت في الربع الأخير من القرن الثالث عشر للهجرة

كانت مدينة « الحلة » حينذاك كعبة الرواد ومنهل الوراد من عشاق العلم والأدب والعرفان ، وكانت الينبوع الرائق السلسبيل الذي يتهافت عليه الظامئون — من كل حدب وصوب — لنهل تلك الرشفات الريا ، التي كانت تفيض من عقول أدبائها الفطاحل بغزارة متناهية فيها كل طرفة ومتعة

أما اليوم وا أسفاه ؛ فإن أدباءها كادوا أن ينامسوا أن لهم من تاريخهم الفكري ما يضمن لهم نهضة أدبية رائعة في حاضرهم هذا الذي عصفت به الأهواء وطوحت به النزعات ؛ وقد غرب عن بالهم أن لهم سجلا حافلا بأنواع الجهاد الفكري والعلمي في تاريخ مدينتهم هذه ، ذلك السجل الذي يزخر بتراث أدبي لا يستهان به: ينتظر الجلاء والحك ، ينتظر أن تمتد إليه يد العناية والاعتزاز ، لتسجل جميع مظاهر حياته الفكرية ، لئلا يشذ وينبو عن طابعه المتوارث ، وحاضر محيطه المكتسب ! !

فلو تصفحنا تاريخ الأمم الغربية ، لوجدناه يعتمد كل الاعتماد على ما جاء بتراثه الشعبي القديم ؛ ويضعه موضع التقدير والإجلال. فهذه إنكلترا تقدس أغانيها الشعبية القديمة « Ballads » لما فيها من أمانة في التعبير ، وصدق في الإيحاء ، وجمال في التصوير فهي المرجع الأول عند دراسة نهضتها الأدبية الحديثة ؛ بل هي الأساس المتين الذي بنى عليه أدباء إنكلترا صروح مجدهم الأدبي

فالشعر الشعبي له طابعه الخاص ، وله مميزاته وأساليبه وفنونه ، وهو مرآة صادقة لحياة الجيل بكامله ، بل إنه الصورة الحقيقية التي نعتمد عليها في دراسة ذلك العصر ، بما فيه من ألوان وأشتات ، فضلا عن أن للغته العامية « ديناميك » مجرى يستقر في النفس وفي الأعماق دون التواء أو مواربة . . فهي المدرسة الأولى لشحذ أذهان أبنائها ، وتدرجهم إلى صفوف الكمال ...

ويشترك الشعر الشعبي مع شعر القريض في قوة التعبير عن الخلجات والأحاسيس ، كما يشاركه في الأوزان والقوافي والأغراض ، وبكثرة عدد فنونه ومصطلحاته التي وضعها له أهل هذا الفن . . ومن بين مشاهير الفضلاء الذين نظموا في الشعر الشعبي : هو الإمام ابن الجوزي ، وشمس الدين الكوفي ، وأبو بكر ابن قزمان وغيرهم ، كما نقل ذلك صاحب كتاب «ميزان الذهب» وابن خلدون في « مقدمته »

ولم يقتصر نظم الشعر الشعبي على الشعراء القدماء بل تعداه إلى مشاهير الشعراء المحدثين ، كأمير الشعراء أحمد شوقي بك ، وشاعر الشباب أحمد رامي — شيطان أم كلثوم ! ولهما في ذلك قطع غنائية خالدة ملأت سمع الزمان رقة وعذوبة ، وبذلك أضافا إلى الأدب العربي ثروة رائعة ، كانت ولا تزال موضع تقدير وإعجاب من أبناء الضاد ...

وفي هذا الفصل أستعرض أمام القارئ صورة جميلة ، أوشك الزمن بمروره أن يطمس معالمها ويذهب برواتها وآثارها ، هذه الصورة المحببة إلى نفوس طائفة كبيرة من أدباء هذا العصر : تلك هي صورة حياة الشاعر الشعبي محمد بن إسماعيل الحلي (١) ، المعروف بابن الخلفة !

ولد الشاعر في مدينة الحلة عام ١٢٤٧هـ في محلة « الجامعين »(٢) وترعرع في مغانيها بين ظلال النخيل ، شواطئ الأنهار ، وشب في أحضان الطبيعة الساحرة ، بين أهل العلم والأدب ، مثال

* لمحة موجزة من كتاب للمؤلف سيظهر قريبا .

(١) نسبة إلى مدينته الحلة . .

(٢) الجامعين : حي من أحياء مدينة الحلة ، لا يزال حتى الآن .

السيد حيدر بن السيد سليمان الحلى ، والسيد صالح بن السيد مهدى المعروف بـ « الكواز [١] » ، وغيرهم مما لا يستطاع حصر عددهم ... فظهرت شاعريته منذ نعومة أظفاره ، وراح يرسل الأنغام عبر الفضاء الرحيب ، مجنحات الرفيف الحلو ، والرنين المطرب ... إلا أن البعض من شعره — كما سترى — تغلب عليه الألوان البيانية المتكلفة ، ويشيع فيه الغلو والإغراق فى الزخارف البديعية . .

كان — رحمه الله — ذكى القلب بارع النكتة ؛ خفيف الروح ، وفيا أبيا لم يتكسب بشعره ، ولم يمتدح أحداً لا يستحق الإطراء والثناء ، بل كان يتكسب من مهنته الخياطة التى كان يزاولها ، إذ تدر عليه ما يسد رمقه وبقيه العوز والفاقة : لذا تراه قد جال جولات صادقة فى جميع فنون الشعر الشعبى والقريض معا ، منها « الموال [٢] » و « الركبانى » و « البند » . .

فاستمع إليه فى « موال » الشعبى الذى يزخر بالجناس والتورية ، يقول فيه :

يا فاحم الليل جمدك والبدر وبهلك
النارا إلك نورهه وبضامرى وبهلك
يبزى دلالك على وتفنجك وبهلك
يا من بفتر العيون أرميتنى والحاظ
يا مانعى شمتك ومسامرك والحاظ
واللى حظه بك حظه والماحظه والحاظ
بهواك من ذا وذا يعدم عليه وبهلك

وهاك استمع إليه فى « موال » آخر ، يقول فيه :

لواعجى يوم طار الشوك بظهورهن
والبيض أطون حزون الطى بظهورهن
ونيت ون الطمين الكيض بظهورهن

كالن : علامك بروض الحسن شخصك فلا ؟
والنيد يمك فلا تحظى بوصله فلا ؟ !

كات : آنه شبه النياق اللى سرن بالفلا
ومن الظما موتن والماى بظهورهن

وهو بهذا الموال قد ضمن البيت المشهور القائل :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

وقد أحب شاعرنا عذراء من أهالى « القصيم » من ديار نجد واسمها « ى » : وهى فتاة كاعب لم تبلغ الرابعة عشر من عمرها ؛ فرقت نفسه ، ودقت محبته ، فأطلق لعواطفه العنان ، وراح يسرف على روحه فيما يخضع له من تباريح الهوى وعذاباته ، ولكن فى ثياب من العفة والطهر والبراءة ؛ فنظم « ركبانيته » المشهورة ، قالها على لسان أهل القصيم . . فيقول فيها :

يا معتلى فى كور هجنا تليمه
ريض لشبدى [٣] بالنوى لا تليمه
قبل السرى يا هيه [٤] دونك ذريمه
من مدنف فى قيد الأشواق مرهون

واستمع إليه وهو يخاطب صديقه الذى أوفده كرسول إلى حبيبته « ى » فيقول له :

وأمض لفتاة الحى والليل داجى
عساك من صرف الجادير [٥] ناجى
عنى نيابة يا فتى ، لا تحاجى [٦]
قلها : ترى يا « ى » خلفت مجنون

وبعد أن يرحل ذلك الرسول ويقوم بمهمته أحسن قيام ، يعود إلى الشاعر بأخبار سارة ، ويوصيه بالسفر إلى لقاء معشوقته ... وهكذا يمضى على هذا المنوال فينسج رائعته الشعبية التى يصف فيها قصة غرامه ، وكيف راح يتلصصا « كضيف الطيف مسترصدا » ، ليزور حبيبته فى غفلة من عيون الوشاة وآذان الحساد ، وفى حذر وخوف من أهلها ذوى البأس والبطش .. وهاهو الآن يلتقى بها فى سكون الليل الهادئ . فاسمعه يقول :

---

(١) الكواز : نسبة إلى مهنته ، فقد كان يصنع الجرار والكيزان والأوانى الخزفية .
(٢) له من هذا النوع كراس صغير بعنوان « الروضة » .
(٣) لشبدى : أى كبدى
(٤) يا هيه : يا هذا .
(٥) الجادير : الأقدار .
(٦) لا تحاجى : لا تراوغ .

مديت كفى حذر (١) طي الـــ برم (٢)
قالت : تهـــدى ، قلت : أنا بك مغرم
من للوصل يا زينة العين حـــرم ؟
والوصل مردين (٣) الهوى بيه يحيون

فتخاطبه :

خلى الترومه واشفى اللئم تشـــرى
وأنشق عبـــير حقاق غاص بصدرى
لا تكثرن ضمى فأعـــوام عمرى
عشر وأربع ما عليهـا يزيدون

* * *

بكر بعد ما لوث الثـــوب تهدى
ولا انقطف ورد زها فوق خـــدى
غيرك فما حصل ســـوى طول صدى
ولا هلى بى بعض ريبـــه يظنون

وبعد أن يتزود من معبودته يودعها على مضض، فيقول :

ودعتها والدمع عالخـــد سايل
والجسم من عظم النوى بات ناحل
قالت : بنا لا تقطعون إرسايل ،
ناديتها : وانتوبنا لا تقطعون

وراح ابن الخلفة يبزغ نجمه رويداً رويداً ، فاندفع يغشى مجالس العلم ونوادى الأدب ، ويتصدر الحفلات والولائم ، فذاع صيته وشاع ، حتى تتلمذ له كثيرون ، ساروا على منواله متلمسين خطاه .. وقد تأثر بشعر شعراء الموشحات فى الأندلس والعراق ، فأخذ يعب من رحيق ينابيعهم ، ويقلد فنونهم فى صياغة الموشحات ولكنه ، وفى الأخير ، برع فى صياغة نوع آخر يسمى « البند » وأول من اخترع هذا النوع هم أهالى « الحويزة » (٤) وهو منوال غريب قد يخرج على أوزان الشعر ، وقد يوافقها . ولا نخطئ إذا قلنا إنه قريب الشبه من النثر المسجع ، أو الشعر المرسل ؛ إلا أن الناظم لهذا اللون كان جل اعتماده على اللحن الموسيقى ، حتى ولو خرج عن الأوزان العربية المعروفة ، لأن الدافع الأول — كما قلنا — كان دافع الطرب ، والتأثير على السمع ليس إلا !

١) حذر : تحت ..
٢) البرم : الملاءة .
٣) مردين: صرعي الهوى
٤) الحويزة : منطقة فى الجنوب الشرقى من لواء العمارة .

وشاعرنا هذا : قد بز أقرانه وغلبهم فى هذا المضمار . وله فى ذلك ثلاثة « بنود » معروفة ، فالبند الأول يصف به حصانه . والبند الثانى يصف فيه سفرته إلى « بغداد » . والبند الثالث وهو المشهور يصف فيه حبيبته وصفاً دقيقاً ، وهو بذلك يقلد صاحب « اليتيمة » (١) وقد وشاه بألوان رائعة من اللفظ الأنيق من جودة الصياغة ، وغزارة المعانى ، تلك التى نتلمسها فى كل صورة من صوره . ولو أننا نلاحظ فيه بعض التكلف فى الصناعة ، وبعض التعقيد فى اللفظ ، وهذا مما دفع به أن يحشر بين سطوره طائفة من الكلمات الغريبة ، البعيدة كل البعد عن اللغة العربية الفصحى . . ولكن له العذر فى ذلك ، لأن طابعه الشعبي يغلب عليه فى بعض الأحيان ، فتفلت منه هذه السقطات

فاسمع إلى ما يقول فى هذا البند :

أيهـا اللائم فى الحب
دع اللوم عن الصب
فلو كنت ترى حاجبي الزج فويق الأعين الدعج
أو الخد الشقيقى
أو الريق الرحيقى
أو القد الرشيق
الذى قد شابه الغصن انعطافا واعتدالا ،
فغدا يورق لى آس عـــذار أخضر
دب عليه عقرب الصدغ ،
وعرنين حكى عقد جمان يقق
قدره القادر حقا ببنان الجود
ما زاد عن العقد ،
وثغر أشنب قد نظمت فيه لآل لثناياهن
فى سلك دمقس أحمر
جل عن الصبغ
وجيد فضح الجؤذر مذ روعه القانص

(١) وهى القصيدة الدعدية التى مطلعها :
هل بالطلول لسائل رد   أم هل لها بتكلم عهد ؟!

فانساع ودين الود
يزجى حذر السهم طلا عن متنه
فى غاية البعـــد ،
فلو تلمس من شوقك ذاك العقد المبرم
والساعـــد والمعصم
والـكف الذى أعله قد شاكلت أقلام ياقوت
فكم أصبح ذو اللب ، من الحب ، بها حيران مبهوت ؟
ولو شاهدت فى لبته يا سعد مرآة الأعاجيب
عيهلا ركبا حقا عاج حشيا من وائق الطيب ،
أو الـكشح الذى أصبح مهضوما نحيلا
مذ غدا يحمل رضـــوى كفل
بات من الرص كوار من الدعص (١)
ومرتجى ردفين
عليها ركبا من ناصع البلور ساقين ،
وكمين أدرمين
لما صيغ من الفضة أقـــدام :
لما لمت محبا فى ربى البيد من الوجد بها هام !
أهل تعلم أم لا ؟ أن للحب لذاذات
وقد يعذر لا يعذل من فيه غراما وجوى مات
فنا مذهب أرباب الـكمالات
فدع عنك من اللوم زخاريف المقالات ،
فكم قد هذب الحب بليدا ؟!
فغدا فى مسلك الآداب والفضل رشيدا ،
صه .. فما بالك أصبحت غليظ الطبع ؟!
لا تعرف شوقا
لا ولا تظهر توقا
لا ولا شمت بأحطليك
سقى البرق الموعى الذى أومض من جانب أطلال
خليط عنك تدلبن
وقد عرس فى سفح ربى البان ،
ولا استنشقت من صوب حماه نفحة الشيح «٢»

«١» الدعص : الرمل
«٢» الشيح : نبات ذو رائحة ذكية ..

ولا اهتاجك يوما للقاه من جوى وجد وتبريح ،
لك العـــذر
على أنك لم تحظ من الخل بشم وعناق
وبضم والتصاق ،
لو تكن مثلى قضيت ليال
سمح الدهر بها ، إذ بات سكرى قرقف الريق ، بتحقيق ،
فما قهـــوة إبريق !!
ومشموى ورد ، لاح
من وجنة خـــد ، فاح
لى عرف شذاه ،
وإذا أسفر ليل الشعر فى طرته
أوضح من فرته
صبح سناه ،
لو ترانا كلنا يبدى لدى صاحبه العتب
ويخفى فرط وجد كامن أضمره القلب سعيرا ؛
والتقى قمصنا ثوب عفاف قط ما دنس بالإثم
سوى اللثم :
لأصبحت من الغيرة فى حيرة
حتى جئت لى من خجل تبدى اعتذارا
ولأعلنت بحب الشادن الأهيف سرا وجهارا ! .

* * *

إلى هنا يصل ابن الخلفة فى « بنده » ثم يعرج به إلى مدح الإمامين موسى الـكاظم ومحمد الجواد عليهما السلام ، ولنقتطف إلى القارئ صورة واحدة فى هذا المديح .. يقول فيه :

عم الخلق بالرفد ببذل زائد الحد
وقد جـــل عن الند
وقد فاق على النـــور شذاه
وعلى البـــدر سناه ! .

* * *

هذه لمحة موجزة من حياة هذا الشاعر المنسى ، الذى توفى رحمه الله – سنـــة ١٢٩٧ هجرية ، فى بداية تفشى مرض الطاعون المشهور فى الحلة ، ونقل جثمانه إلى النجف الأشرف ليدفن هناك ..

العراق – الحلة عبد اللطيف الشهابى